

الجـاحـظ

رأسد الجمال في العربية

د. علي أبو صلم

1 - الجمال :

لم يعر الفلاسفة العرب الجمال العناية الكافية، ولا نجد نظرية جمالية أصيلة إلا عند الجاحظ، وربما ساعده على ذلك موهبته الأدبية، وقد جمع الفلسفة والفن في نتاجه، وطبق أصول نظريته في آثاره على نحو ممتاز يسترعي الانتباه ويدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان الجاحظ استنبط أصوله الفنية من نتاجه أو صاغ نتاجه بعد وضع أصوله الفنية. وإذا نظرنا إلى الكتب التي شرح فيها نظريته الجمالية مثل الحيوان والبيان والتبيين نجد أنها قد وضعت في أواخر حياته مما يحدونا إلى القول أنه استخرج أصوله الفنية من نتاجه.

وعندما حاول الجاحظ تحديد الجمال وجد صعوبة دفعته إلى القول: «إن أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره»⁽¹⁾. وهذا يعني أن إدراك الجمال لا يتم بواسطة حاسة البصر فقط وإنما يحتاج إلى أعمال العقل والثقافة والرياضة أو الخبرة.

الجمال ينظر الجاحظ هو التمام والاعتدال أو هو صفة الجسم التام الأجزاء المعتدل التكوين، إن الأجزاء التي تدخل في تكوين الجسم ينبغي أن لا تتجاوز المقدار من حيث الحجم فلا تكون مفرطة الكبر أو الصغر. وبالنسبة للجسم البشري تكون الزيادة في طول القامة أو سعة العين أو الفم نقصاً في الجمال وإن اعتبرت زيادة في الجسم.

والاعتدال يعني التوازن والتناسب بين أعضاء الجسم. وبالنسبة للجسم البشري ينبغي أن يكون ثمة تناسب بين الرأس والجذع والأطراف، وبين العينين والأذنين والأنف والفم والذقن والجبين. فالظهر الطويل لا يتناسب مثلاً مع الفخذين القصيرين، وكذلك لا يتلاءم الظهر القصير مع الفخذين الطويلين. وقيل الشيء نفسه بالنسبة لسعة الفم والعيون بالقياس مع سعة الوجه وحجم الرأس الخ...

ما هو المقياس الذي نقيس به عظم أعضاء الجسم ونحكم عليها بأنها تامة معتدلة وبالتالي جميلة؟ يجيب الجاحظ أن ذلك المقياس هو الجسم المتوسط المعتدل التكوين، فما اقرب منه عُدَّ جميلاً وما ابتعد عنه عُدَّ قبيحاً.

ويطبق الجاحظ أصول الجمال هذه على المرأة فيقول إن المرأة الجميلة هي المرأة المجدولة. والمجدولة هي التي تنوسط بين السمينة والمشوقة، ولا بد فيها من جودة القد وحسن الخوط واعتدال المتكبين واستواء الظهر ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيقة⁽²⁾.

(1) الجاحظ، رسالة القيان (آثار الجاحظ) ص 81.

(2) الجاحظ، رسالة النساء، (آثار الجاحظ) ص 111.

ان المرأة الجميلة، هي التي تكون معتدلة الأعضاء، لا تزيد أعضاؤها عن الحد في الضخامة، وتتناسب فيما بينها فيخلو جسمها من الفضول، وتكون بين الجسيمة والمشوقة، ويعتدل منكباها ويستوي ظهرها ويحسن قدها. وهذا التركيب يجعلها تنثنى في مشيتها فتستهوي القلوب وتخلب الأبصار.

ونستطيع أن نوجز الأصول التي بنى عليها الجاحظ نظرتة الى الجمال بما يلي:

- 1 - الجمال موضوعي أي قائم في الأشياء وليس أمراً ذاتياً نضفيه عليها من عندنا.
 - 2 - يدخل في تقويم الأشياء من الناحية الجمالية الحس والعقل معاً.
 - 3 - للجمال مقاييس محددة يمكن استخراجها من الأشياء ومن ثم تطبيق على الموضوعات التي نريد الحكم عليها.
 - 4 - لم يهتم الجاحظ بالناحية الروحية في الجمال واقتصر على الناحية المادية الجسمية. فهو مثلاً لم يلتفت في كلامه على جمال المرأة الى نفسياتها وأخلاقها وانصب اهتمامه على صفاتها الجسمية.
 - 5 - إن مفهوم الجاحظ للجمال يشبه مفهوم أرسطو فهو يقوم على فكرة الاعتدال أو التوسط والتناسب.
- إلى جانب هذا الجمال الطبيعي الذي أبدعه الله. . يوجد الجمال الفني الذي أبدعه الانسان والذي يتمثل في الفنون الجميلة من نحت وتصوير وموسيقى وأدب وغيرها. من هذه الفنون لم يهتم الجاحظ الا بفن الأدب، فتكلم على البلاغة والخطابة والشعر وطبق الى حد بعيد الأصول التي مر ذكرها للجمال.

2 - البلاغة :

فالبلاغة هي إبلاغ المعنى إلى السامع بواسطة الكلام. وهذا الكلام ينبغي أن يكون فصيحاً أي واضحاً حسناً. واللفظ الفصيح هو الذي يقع وسطاً بين السوقي والغريب، «فالقصود من ذلك أن تتجنب السوقي والوحشي ولا تجعل همك تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص الى غرائب المعاني. وفي الاقتصاد بلاغ وفي التوسط مجانبة للوعورة وخروج من سبيل من لا يجاسب نفسه»⁽³⁾.

إن المقياس الذي ينبغي اللجوء اليه لمعرفة توافر الفصاحة، في الكلام هو القرآن ولغة الاعراب أما كلام العامة وأهل الأمصار فليس حجة في الفصاحة.

والجدير بالذكر هو أن الجاحظ لم يصل إلى تعريف للبلاغة إلا بعد استعراض المفاهيم المختلفة لها التي وجدها عند الفرس والهنود واليونان والعرب.

فالفرس يعتبرون البلاغة معرفة الفصل من الوصل. ومراعاة الفنون الأدبية المختلفة والوضوح والتقيد بالموضوع. والهنود يفهمون البلاغة بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ومراعاة أحوال الناس الذين يوجه اليهم الكلام. أما العرب فقد أقاموا البلاغة على أصلين هما الایجاز والطبع. الإيجاز هو حذف ما فضل من الكلام. والطبع هو مجانبة التكلف والصنعة.

لم يتبين الجاحظ الأصل الأول للبلاغة أي الایجاز وإنما أثر عليه المساواة أو تفضيل الألفاظ على أقدار المعاني. وذلك انسجاماً مع فلسفة الوسطية التي نادى بها. وقد شرح مبدأه هذا قائلاً: «وإنما وقع الهذلي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء نصر عن المقدار. فالعي مذموم والخطل مذموم، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي»⁽⁴⁾.

وإذا أريد من الایجاز أن يعتمد شرطاً من شروط البلاغة وجب ألا يكون مرادفاً للاختصار - كما كان يفهم في عصره - بل يجب أن

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 173.

(4) المصدر عينه، ص 138.

يعني حذف ما فضل عن المندار، والمقدار هو كمية اللفظ اللازمة للتعبير عن المعاني بوضوح. ينبغي إذن أن يحذف من الكلام بقدر ما لا يكون سبباً لغلطه ولا يردد وهو يكتفي في الأفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطأ، وبناء على هذا لا تعد الإطالة خطلاً إذا جاءت في موضعها أي إذا كانت ضرورية لايضاح المعنى، وكذلك لا يعد الإيجاز عجزاً إذا كان في موضعه، أي إذا كان كافياً لايضاح المعنى⁽⁵⁾.

وإذا كان الجاحظ يرفض الأصل الأول للبلاغة العربية أي الإيجاز، فإنه يتبنى الأصل الثاني أي الطبع، ويؤيده بقوة لأنه يتفق مع فلسفة الطبيعة فهو يعتبر الأدب وليد الطبع وليس صناعة متكلفة ويقول إن النثر أو الشعر الذي «تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهوا رهوا، مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد مرأماً وأحسن موقفاً في القلوب وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ولأن التقدم فيه وجمع النفس له وحصر الفكر عليه لا يكون إلا بمن يحب السمعة ويهوى النصح والاستطالة»⁽⁶⁾.

والطبيعة تقتضي الواقعية أو محاكاة الواقع بصدق دون تحوير أو تزوير حتى نرى الجاحظ يذهب في ذلك أبعد مدى فيزعم أن الواقعية تقتضي إيراد الألفاظ كما وردت على ألسنة أصحابها دون لحن فيها إذا كانوا من الفصحاء ودون فصاحة إذا كانوا من عامة البلديين.

كما أن الطبيعة تقتضي عدم الاسراف في التفتيح والتصفية لأن ذلك يؤدي إلى التكلف وعسر الفهم. ويقول في ذلك: «... وليس له أن يهذه جداً وينقحه ويصفيه ويروقه، حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، وأسقط زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تعكس ويؤخذ منها»⁽⁷⁾.

3 - الخطابة :

الخطابة طبع يولد مع بعض الناس ولا يكتسب اكتساباً، وفي هذا لا يخرج الجاحظ عن عمود فلسفته الطبيعية، وهو يؤكد لنا مذهبه الفلسفي قائلاً: «وقد يكون الرجل له طبيعته في الحساب وليس له طبيعة في الكلام، وتكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة، وتكون له طبيعة في الحداة أو في التعبير، أو في القراءة بالألحان وليست له طبيعة في الغناء، وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحن... ويكون له طبع في صناعة اللحن ولا يكون له طبع في غيرها، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولا يكون له طبع في قرص بيت شعر، ومثل هذا كثير جداً»⁽⁸⁾.

- ويتحدث الجاحظ مطولاً عن سنن الخطابة فيرى في التمكن من اللغة أهم شرط في الخطيب الناجح، وهو يقول إن اللحن في الخطيب عيب لا يغنى ولا يذهب لا يغفر.

ومن آلة الخطابة في نظره جبهة الصوت وحدة النبرات ليتمكن الخطيب من إيصال كلامه إلى مسامع الجمهور الغفير. وإذا كان صوته خافتاً ونبراته ضعيفة لم يستطع التأثير في مستمعيه.

ولا تعني جبهة الصوت التشديد، فالتشديد أمر مكروه يحججه الذوق ويشمئز منه الناس.

ومن سنن الخطابة أيضاً قلة الاشارات والحركات عند الالتقاء، لأن كثرة الحركات دليل على العجز يلجأ إليها الخطيب عندما يعوزه البيان وزرابة اللسان.

أضف إلى ذلك جمال هيئة الخطيب، وسمو أخلاقه، فإنها شديداً التأثير في المستمعين، وشتان بين خطيب دميم المنظر منحط القيم المعنوية، وبين آخر يهي الهيئة مرتفع المعنويات.

(5) المصدر عنه، ص 93.

(6) الجاحظ - البيان والتبيين، ج 4، ص 95.

(7) الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 89 - 90.

(8) الجاحظ البيان والتبيين، ج 1، ص 142.

- أما أصول الخطبة ذاتها كصنيع فهي فقد طبق فيها الجاحظ مبادئه الفنية والجمالية. والأصل الأول الذي ينبغي مراعاته دائماً هو ملاءمة الكلام لمقتضى الحال، أي حال المستمعين ومستواهم الثقافي والاجتماعي وظروفهم النفسية والمعيشية.

والأصل الثاني هو التقيد بالموضوع وعدم الخروج عنه لأن من شأن الخروج عن الموضوع تشويش أفكار المستمعين.

ومن أصول الخطابة الابتعاد عن الألفاظ الغريبة لأن الاكثار منها يجعل المعاني عسيرة الفهم ويحول دون تحقيق الخطبة الغاية التي ألفت من أجلها وهي الاقتناع والتأثير. إن الفاظ الخطبة ينبغي أن تنصف بالفصاحة والجزالة والجمال لتسرق الأسماع وتهفو إليها النفوس.

ومن سنن العرب بدء خطبهم بالبسملة والحمدلة والتصلة، والخطبة التي تخرج عن هذه السنة تدعى بتراء.

ومن سننهم أيضاً توشيح الخطب بأي من القرآن الكريم والخطبة التي تخلو من أي القرآن تدعى الشوهاة.

وكذلك من عاداتهم إيراد شواهد حكمية وشعرية في خطبهم تأييداً للأفكار التي يريدون إبلاغها إلى المستمعين وإقناعهم بها.

ولم يتوقف الجاحظ طويلاً أمام مسألة تصنيف الخطب كأرسطو. وإنما أشار إشارات عابرة إلى أنواعها فقال إن من الخطب ما تكون قصيرة وما تكون طويلة، ومن أنواع الخطب خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة إصلاح ذات البين وخطبة التواهب.

ويبدو أنه لم يكن مطلعاً على كتاب الخطابة لأرسطو، لذا لم يذكره، ولا شيء يدل على تأثره به. ومع ذلك نراه يقرن بين الموهبة الخطابية عند الأمم كالهنود واليونان والفرس والعرب فيجد العرب أخطب الأمم دون منازع لأنهم أصحاب طبع قوي لم يكتسب بالتعلم والرياضة. ولا يحتاج العربي إلا إلى توجيهه منه إلى الموضوع الذي يريد الكلام فيه حتى تتدفق عليه المعاني وتثال على الألفاظ.

4 - الشعر :

حدد بعضهم الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى. بيد أن الجاحظ لا يقبل هذا التحديد ويقول لا نستطيع أن نطلق اسم الشعر على كل كلام موزون حسب البحور الشعرية التي استنبطها الخليل بن أحمد الفراهيدي ولكي يصبح الكلام شعراً ينبغي أن يقصد إليه قصداً ويبلغ مقداراً معيناً.

والتحديد الذي يعتمده الجاحظ للشعر هو التالي: «الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير»⁽⁹⁾. وهو لا يعني بالصناعة العمل الإرادي الذي يتم بمشيئة المرء بحيث يستطيع أن ينظم الشعر متى شاء، فالجاحظ يؤكد على أن الشعر طبع أو موهبة جابها الله القلة من الناس، ولا يقوى على قرض الشعر من حرم هذا الطبع مهما بذل من جهد أو تلقى من علم. إنه يعني بالصناعة الصياغة، أو فن تركيب الكلام وسبكه ومن هنا جاء تشبيهه للشعر بالنسيج فكما أن الثوب يتألف من خيوطه تصف طولاً وعرضاً لتشكل لحمة وسداه، هكذا القصيدة هي مجموعة أبيات مؤلفة من رصف ألفاظ تشكل الصنيع الفني الرائع.

والشعر ضرب من التصوير، وفي هذا إشارة إلى أهمية عنصر الخيال في الشعر. فالخيال يركب الصور ويختزنها اختراعاً.

ولم يعط الجاحظ عنصر الفكر ما يستحقه من أهمية لأنه يعتبر المعاني مطروحة في الطريق يعرفها جميع الناس، وكذلك أهمل عنصر العاطفة، وجعل الأهمية للوزن وسبك الألفاظ وصحة الطبع.

- وعلى أساس الطبع يصنف الجاحظ الشعراء، فمنهم الشعراء المطبوعون الذين يجودون بالشعر أو تفيض به قريحتهم ولا يتكلفون فيه صنعة أو يهتمون بتصفية وتنقيح، ومنهم الشعراء المتكلفون الذين يعتنون بتنقيح شعرهم وإعادة النظر فيه ليأتي أجود وأصح.

وتكلم الجاحظ على نشأة الشعر العربي، فزعم أنه حديث الميلاد، نشأ قبل الإسلام بنحو قرنين من الزمن، وقد تأخر ظهوره عن الفلسفة اليونانية التي تمثلت بكتب افلاطون وأرسطو وغيرهما.

(9) الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 132.

وقد لاحظ ظاهرة السرقات الشعرية فقال ان الشعراء المتأخرين يغيرون على المعاني التي سبق اليها أسلافهم فيضمونونها أشعارهم، وقد يسرقون البيت برمته ويدعونه.

كما أثار الجاحظ ظاهرة أخرى في الشعر هي قضية نحل الشعر التي أثارت ضجة كبرى في العصر الحديث. لقد عمد بعضهم الى نظم أشعار نسبوها الى شعراء سبقوهم في الزمن، ولذا يدعو الجاحظ الى عدم تصديق كل ما يروى لأن الكذب كثير والزور غالب.

وتصدى الجاحظ لظاهرة ثالثة هي الشعر المولد وقيمة هذا الشعر بالنسبة للشعر القديم. وقال إن الفرق بين الصنفين يعود الى أن الشعراء القدامى نظموا الشعر عفواً دون تفكير وكد ذهن، بينما نظم المولدون الشعر وأدخلوا فيه الثقافة التي حصلوا عليها في بيئاتهم المتحضرة عندما انتشر العلم وترجمت الكتب الأجنبية الى العربية من علم وفلسفة وأصبح الشاعر مثقفاً ولم يعد أمياً.

ويعالج الجاحظ مسألة طريفة، هي دور الوراثة في الشعر وينتهي بعد دراسة لظهور الشعر في عدة قبائل وعدة أقطار ان الوراثة والتربة والناخ وطرق العيش لا علاقة لها بالشاعرية لأن الشعر هبة من الله.

ويتحدث الجاحظ أخيراً عن قيمة الشعر ومدى تأثيره وتساءل عما اذا كانت له غاية يطمح الى تحقيقها أو وظيفة يجتهد في الاضطلاع بها.

يلاحظ الجاحظ أن للشعر فائدة للشاعر فهو يظهر عبقريته ويعود عليه بالرزق، وله فائدة للممدوح، اذا كان مدحاً، لأنه يخلد ذكره.

وللشعر وظيفة ثانية هي التقييف بفضل ما ينطوي عليه من أفكار، ولكن الكتب المنشورة أعم نفعاً من هذه الناحية لأن النثر أقدر على نقل المعارف من الشعر.

وثمة وظيفة ثالثة للشعر هي الدعاوة السياسية والاجتماعية والدينية والخلقية. لقد كان الشعر العربي سجلاً للقيم الخلقية والاجتماعية عند عرب الجاهلية وكان بيت من الشعر يرفع أو يحط قدر قبيلة من القبائل وقد اتخذ أداة في الصراعات السياسية والخصومات المذهبية والدينية.

ويلمح الجاحظ الى وظيفة رابعة للشعر هي الوظيفة النفسية فالشعر بلطف العواطف ويشير المشاعر وينفس عن الاهواء المكبوتة. وقد سئل أحدهم عن الشعر فقال: شيء تجميع به صدورنا فننقذه على ألسنتنا.

أما وظيفة الشعر الفنية فتبدو في إيقاظ الشعور بالجمال لدى الناس. ومن ثم كان للشعر ذلك الوقع الساحر في النفس، وقد عبر عنه القول المأثور: «إن من البيان لسحرا».